الأدب و الأديب في مواجهة الاحتلال

(فن الرواية نموذجاً)

إعداد

الدكتور يوسف ذياب

كلية العلوم التربوية

رام ا

يمكن القول إن حرب حزيران عام ١٩٦٧ كانت من أهم المنعطفات التي واجهـت الإنسـان العربي بشكل عام فقد أظهرت أن الصراع طويل ومرير، وكشفت أبعـاداً سياسـيةً وفكريـةً وطبقيةً متعددة، وشعر الأديب من جهة أخرى بأن أقدامه تضرب في أعمـاق الأرض التـي كانت تميد تحته. كما أن الرواية تبدو من أفضل الأشكال الأدبية الأخرى في معالجة القضـايا المعقدة فالنثر شرح وتفسير وتحليل والتزام، وهذا ما يفسر كثرة الإنتاج الروائي بعـد حـرب حزيران. وهو الأمر الذي يشير إلى "أن الرواية تعبير عن مجتمع يتغير ولا تلبث أن تصـبح تعبيراً عن مجتمع يعي أنه يتغير .لكن ذلك لا يعني أن الرواية مجرد تابع ومتلـق للظـروف التاريخية ومتغيرات الواقع، بل إن فن الرواية يلعب دوراً هاماً في التأثير علـى المنعطفـات الحادة والمتغيرات قبل حدوثها مثل التمهيد لها أو التنبؤ أو الإرهاص بهـا، وطالمـا أن فـن الرواية فن متطور فإنه لا بد أن يلعب دوراً مزدوجاً يتمثل في التأثير والتأثر معـاً "والنقـاد الذين يذهبون إلى تقوية دور الصلة بين الأدب الواقع، يعمدون إلى اختيار الرواية كفن أدبـي لأنهم يرون أنها أكثر مساعدة لهم في مهمتهم".

لقد أثبت حزيران في مختلف المجالات، أن الزمن لا يعود إلى الخلف، وهذا يعنـي صـعوبة العودة إلى رؤى سابقة، وأن أية محاولة من هذا النوع إنما هي اجترار ساذج لأفكار ومقولات مرادفة للصمت، فقد جاءت "أحداث حزيران ١٩٦٧ لتعلن انهياراً فكرياً يطال البنـى كافـة، ففجرت العديد من القضايا والمشكلات، وانصرف المفكرون والسياسيون إلى إعادة النظر في الموروث، فدعوا إلى النقد والنقد الذاتي وإلى البحث مجدداً عن جذور النكبـة، ولمـا كانـت

الظاهرة الروائية على علاقة وثيقة بالمناخ الاجتماعي والسياسي ومجمل التغيرات الخطيـرة التي طرأت على الوطن العربي بعد حزيران، فقد حاولت الرواية استيعاب الوقائع الجديدة".

وقد اختلفت ردود أفعال الأدباء بشكل عام والروائيين بشكل خاص أمام هذا الواقع الجديد الذي أفرزه حزيران، وانطلقت ردود أفعال الروائيين تبعاً لمكوناتهم الفكرية والثقافية والاجتماعيـة، وسماتهم النفسية وقد "تراوحت ردود الفعل الناجمة عن النكسة، كما سماها الكتّـاب العـرب، وتباينت إلى حد كبير بين خلود إلى الصمت المطبق الذي استمر سنوات وبين التعبيـر عـن أقصى درجات الغضب".

وإن كانت المرحلة السابقة قد تميزت بالركود والسكون، فإن المرحلة اللاحقة تميـزت بكثافة الأحداث والتفاعلات التي اجتاحت الواقع العربي، وأثرت على جميع جوانبه، "وتبدأ هذه المرحلة بهزيمة مفاجئة في عام ١٩٦٧، ليجد الإنسان العربي نفسـه مشـتبكاً مـع واقعـه، متصارعاً مع زمنه، رافضاً لكل الأقنعة التي كشفتها الهزيمة. لقـد شـكّلت هزيمـة ١٩٦٧ انعكاساً خطيراً أثر على كل المؤسسات والتنظيمات والأحزاب التي تزعمت المرحلة السابقة، بل وشكّلت الهزيمة منعطفاً حاداً ومؤلماً على الوجدان والفكر العربيين. ويعود الأثـر البـالغ للهزيمة على الوجدان العربي إلى ذلك الوهم الذي تقمص الإنسان العربي، والتعبئـة المكثفـة التي جعلته واثقاً من النصر".

كان من الطبيعي أن ينصب الاهتمام الأول للرواية العربية بعد الهزيمة علـى البحـث عـن الأسباب التي أدت إليها، ومن ثم استيعاب الدروس التي أثارتها الهزيمة، والتي لم تكن تثيـر انتباهها من قبل، لذلك كان لا بد من العودة إلى الماضي وسبر خفاياه وفهمـه فهمـاً علميـاً والاستفادة منه في توضيح الأسباب، وبعد ذلك كان لا بد من رسم خريطة التجاوز بمعالجـة مشكلات الواقع معالجة جدية رصينة تتسم بالعمق وبلمس الأوتار الحساسة مع وعـي عميـق جداً للصراع ونظرة شمولية للتاريخ.

وإذا كان هؤلاء الروائيون يقفون برواياتهم عند موضوع واحد هـو الهزيمـة فـإنهم يتباينون في معالجتهم وفي مواقفهم أيضاً، ويعود هذا التباين بالدرجـة الأولـى إلـى تشـتت الموضوع وتعدد جوانبه، وإلى رؤية كل روائي للهزيمة ورؤيته لمسـارها كـذلك، وعلـى الخصائص الفنية والفكرية والأيدلوجية التي يتميز بها روائي عن آخر، فقد نظر إليها البعض على أنها هزيمة عسكرية بحتة، ورأوا أن الهزيمة ما كانت لتحدث لـولا بعـض الأخطـاء العسكرية، كما اعتبر البعض الآخر هزيمة حزيران تعبيراً عن المستوى الثقـافي المتخلـف للأمة العربية، لذلك عزا أسبابها إلى غربة المثقف وإلى افتقاد المؤسسات العلمية الحديثة التي

تجعل المثقف عاجزاً عن تقديم خبراته وثقافته في خدمة الشعب، وقد حاول بعض الـ روائيين أن يعتبر الهزيمة تحصيل حاصل للأوضاع السائدة قبلها، لكن الاختلاف بين هؤلاء يكمن في المنطلق الأيديولوجي، فاعتبرها معظمهم نتيجة لابتعاد الناس عن الدين وتعاليمه، واعتبرهـا بعضهم نتيجة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المعطوبة، ولإغفال العدو الطبقـي الـ داخلي الذي أسهم في استغلال جماهير المنتجين وتخديرها.

مما لا شك فيه أن الرواية قد تطورت بعد عام ١٩٦٧ قياساً إلى ما صدر قبل ذلك من أعمال، وأن هذا التطور لا يتنافى، في الوقت نفسه مع صدور بعض الأعمال الركيكة التي يظهر فيها مؤلفوها انعدام معرفتهم بالفن الروائي، وتنوعت اتجاهات الكتابة، " بين كاتـ ب يريـ د إتبـ اع الأشكال القديمة في السرد، ورسم الشخصيات، وتتبع الأحداث، وكاتب يخرج على ذلك، بإتباع الطرائق التجريبية في سرد الحوادث، وتحليل الشخوص، والتعبير عن الهـ واجس والأفكـ ار تعبيراً غير مباشر، يحتاج إلى شيء من التأمل، والتعمق لفهمه".

وهكذا تجد الرواية نفسها وكأنها ما تزال أمام البحث عن أشكالها، فهي حين تكون لغة نثر الحياة المعاصرة ولغة أزمنتها، فإنها تجد نفسها وكأن الزمن الذي تعود به ليس زمناً مرتباً، إنها ليست سليلة عقلانية المعرفة الموضوعية، بل هي سليلة لاعقلانية الحياة اليومية وعقلانيتها، لذلك فهي تعبير عن التجربة الصراعية العربية، إنها المحاولة التي تصارع على أرض اكتناه حقل الصراعات الاجتماعية والطبقية والفكرية المتعددة.

وقد تفاعل معظم الروائيين مع اللحظة التاريخية التي يعيشونها، والأحـ داث الكبـ رى التـ ي واكبتهم، وقد كان لبعض روائي تلك المرحلة مأثرة نقل الرواية إلى عمل فني جاء يتمحـ ور حول أبطال من الواقع، لقد شقّ بعضهم "الطريق ليجعل الواقع مجالاً للأدب بدلاً مـ ن عـ الم البطولات الأسطورية الموهومة، وفتحوا الطريق أمام أبطال من البشر العاديين، وتنبهوا إلى أن للأديب ذاتاً ينبغي له أن يعبر عنها وأن للذات مشكلة مع المجتمع".

ومن الإضافات الروائية القليلة، التي تحظى بأهمية بالغة رواية (الوارث) لخليل بيدس، التـ ي تنفرد بمكانتها التاريخية لكونها تمثل المحاولة الأولى في هذا المجال علـ ى صـ عيد الروايـ ة الفلسطينية. حيث أن الوارث هي العمل الروائي الوحيد الذي وضعه خليل بيـ دس مـ ن بـ ين أعماله الروائية المترجمة، ومن بين كتبه الكثيرة المتعددة. ولكن الرواية تنفي عن ذاتهـ ا أيـ ة خصوصية فلسطينية، " فالشخصية الأساسية عربية غير فلسـ طينية، والشخصـ يات الأخـ رى

عربية ويهودية من غير الفلسطينيين، وبالتالي فإن زمن الحدث الروائي وتفاصيله ظلت تنأى عن تلك الخصوصية"

لقد صدرت هذه الرواية بعد ثلاث سنوات من إصدار وعد بلفور الذي ينص على إعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين، وترافق صدورها مع تزايد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وبدايات التحركات الوطنية في مواجهة المشروع الاستعماري الصهيوني، فهل استجابت هذه الرواية لشرطها التاريخي أم أنها خانته؟

إنها رواية لم تستجب ولم تخن، بل وقفت على الهامش، تحاول الرصد فخدعتها الرؤية، وحاولت أن تقول فلم تصدر عنها سوى التأتأة الأولى. فهي لم تر الحركة الصهيونية بأطماعها الاستيطانية والتوسعية: بل رأت اليهودية -بنمطها التقليدي الشيلوكي- فالشخصيات اليهودية في الرواية متكالبة على المال، انتهازية، جشعة، مستبدة، مستغلة، تهدد الحياة الآمنة لبطل الرواية العربي، فهل قالت الرواية ما كان يجب أن يقال في تلك الحقبة التاريخية؟ لعل الإجابة أصبحت واضحة، فالموقف الذي عبرت عنه الرواية لم يكن نابعاً من فهم سياسي لطبيعة الأخطار المحدقة بالوطن، أو من فهم أيدلوجي لطبيعة الحركة الصهيونية وأهدافها، بل جاءت لتعبر عن موقف أخلاقي من اليهود، وعن هواجس البورجوازية ومخاوفها الطبقية.

و يجدر الوقوف في هذه المرحلة، عند رواية (مذكرات دجاجة) لإسحاق موسى الحسيني، ولا تكمن أهمية الرواية في كونها النص الروائي الفلسطيني الوحيد، من أعمال تلك المرحلة، الذي حقق رواجاً استثنائياً وقت صدوره، إذ "أثارت ضجة حينذاك، واختارها القراء وقدموها على سائر ما صدر من كتب في استفتاء أجرته دار المعارف لقراء العربية". ثم أعيدت طباعتها مرتين بعد ذلك، فحققت انتشارها الجغرافي في أنحاء البلاد العربية، وحضورها الأدبي والتاريخي كرواية فلسطينية وعربية معاً. لكن أهميتها تنبع من الموقف السياسي والأيدلوجي الذي طرحته الذي يفصح عن مواقف طبقة وثقافتها ورؤيتها.

على المستوى الفني، لا تشكل الرواية إضافة جديدة إلى الأدب العربي، بل إنها ترتد إلى شكل مطروق في التراث الأدبي الشرقي، وتستفيد منه دون أي طموح فني للتطوير. فهي تستفيد من كليلة ودمنة وأسلوبها وتستعيده، " حيث تصاغ الحكاية من حياة الحيوان، وينطق حوارها بلسان الحيوان، فيتطابق ما هو حيواني-روائي، مع ما هو إنساني-واقعي. ومن خلال ذلك يسقط الكاتب رؤيته وفلسفته على لسان الطير الذي صنعه، فيختلط الفني بالذهني، والروائي بعقلانية الفلسفة".

في رواية (مذكرات دجاجة) يلتمس الكاتب معادلاً رمزياً لأحداث الواقع، لكنه لا يكتفي بإسقاط رؤيته على الحدث الروائي، وإنما يقحم أيديولوجيته مباشرة، وعلى لسان دجاجته الحكيمة. إن الرؤية المثالية التي تطرحها الرواية، التي تلغي الصراع المادي لحساب الصراع في سبيل المثُل العليا، وتقترح الفلسفة المثالية والأخلاق لمواجهة قوة مادية مدججة، " " إنما تقود في النهاية إلى خيانة الواقع والتاريخ والقضية. ومن هذا الموقع الأيدلوجي والطبقي، خلق إسحق موسى الحسيني دجاجته الفلسطينية التي أسبغ عليها حكمته، لكنه، بوعي أو بدون وعي، خلق دجاجة فلسطينية تخون فلسطين وقضيتها".

تبدو الرواية الفلسطينية من خلال الأعمال المشار إليها سابقاً أشد ما تكون اغتراباً عن القضايا الأكثر خصوصية وجوهرية، فهي نتاجات معزولة لمثقفين فلسطينيين يبدو أنهم كانوا معزولين عن واقعهم وهموم شعبهم، أو أنهم عزلوا همومهم الإبداعية عن همومهم السياسية. "وفصلوا بين همومهم الفنية وطموحاتهم الأكاديمية، أو ربما عجزوا عن التعبير بهذا الشكل الفني الجديد نسبياً (الرواية) عن تلك الهموم، فلم يستطيعوا تحقيق التزاوج والالتئام في داخلهم بين السياسي والفنان والأكاديمي"

إن هذه المحاولات التي جرت في فلسطين لتناول الواقع بأبعاده المختلفة، لم ترق إلى موقع مركزي في الأدب الفلسطيني آنذاك، لأنها محاولات كانت في مراحلها التجريبية، ولم تنتج عملاً فنياً قادراً على اجتذاب الاهتمام على نطاق واسع، لكن على أي حال، "هناك عدد من النقاط الجديرة بالعناية الناقدة. ففي المقام الأول، هناك تقريباً في كل الأعمال المشار إليها توجه وعظي أخلاقي، يصور مجتمعاً ما زال تقليدياً بشكل ملحوظ، وهو يقاوم بقوة الهجوم الشرس لثقافة أجنبية تتناقض مع مبادئه الأساسية".

لقد تواترت العديد من الأعمال الروائية التي تمحورت موضوعاتها حول القضية الفلسطينية، أو مست هذه القضية ولو جزئياً، إلا أن ذلك كله، ظل في إطار المحاولات التي تلامس القضية عن بعد ولا تغرق فيها، وظلّت بمعظمها عاجزة عن امتلاك الأدوات التعبيرية الناضجة والمقنعة، فشكّلت في معظمها مجرد محاولات للتعبير عن التعاطف الوجداني وحسن النية.

ولم تتجاوز المحاولات الروائية التي قدمها كتّاب فلسطينيون تلك السمات التي ميزت الرواية التعاطفية، وإن جعلت هذه المحاولات من القضية الوطنية محوراً لهمومها، فإن مثل هذا الإخلاص وحده لم يعد يشفع لها، ولم يمنحها صفة الحضور الدائم.

تماك الواقع وتماك الأداة الفنية المتميزة وتضافرها الجدلي لصياغة عمل فني متقـدم، تحقـق للمرة الأولى، على صعيد الرواية الفلسطينية، في العمل الروائي الأول لغسان كنفاني (رجـال في الشمس) الذي قدم رؤيا فنية وأيديولوجية وسياسية تتجاوز الرؤيا السياسية والأيديولوجيـة المعلنة خارج النص للكاتب نفسه، فهذه الرواية استطاعت أن تسـتوعب شـروط تاريخهـا، محاولة رصد حركة جوهره والإجابة عن أسئلته الجوهرية، ومن ثم طرح السؤال الحاضـر تاريخياً حول الفعل الغائب في ذلك التاريخ: لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟

وفي بداية زمن الكتابة، قدم غسان كنفاني محاولته الروائية الجسورة (ما تبقى لكم) التي تستفيد من المنجزات الجديدة للرواية الغربية الثائرة على كلاسيكيتها، وتسـتثمر أسـلوبها ومبناهـا التدميري والتجديدي، ولا شك أن دخول الرواية الفلسطينية في مثل هذه المغامرة، شكّل نقطة تحولية في مسارها، فالاستناد إلى مثل هذا الشكل التجاوزي ، جاء مترافقاً مع الطموحات التي تهدف إلى كسر رتابة الواقع نفسه، وتستشرف أحلام التجاوز.

قد تكون رواية (رجال في الشمس) من أقوى الروايات المعاصرة وأكثرها شفافية. "ففي إطار البعد الرمزي يتخذ طلب الحياة خارج الوطن معنى السعي إلى الموت. في رجال في الشـمس يبدو الوعي عند الإنسان الفلسطيني في حالة ركود ونوم إطارها الجهل والتخلـف والقيـادات العاجزة".

لقد حقّق الأدب الفلسطيني داخل فلسطين، ومن ضمنه الرواية، قفزة نوعية في المضمون لـم يعرفها الأدب الذي كان قائماً من قبل، فالأديب الباكي الذي عاش في ذلك العهد وطافت بذهنه ذكريات الفردوس المفقود، قد حلّ محله الأديب المقاتل بما انطوى عليه أدبـه مـن سـمات الإصرار ومحاولة التخطي والانتظام الواعي في الجماعة. فقد ألقى الكاتب نفسه وسط حركـة حاسمة لأن صراع البقاء الذي واجهه في ظل احتلال لا يرحم، جعله يـدرك أن للكلمـة دور الفعل، فبات يؤمن أنه لا يصوغ فناً باهت الصلة بواقعه، وإنما يصنع فناً، ولهذا نهـض الأدب المحلي في فلسطين ملازماً للفعل الثوري.

والأديب بالرغم من تفاؤله بيوم الخلاص الذي يؤمن بمجيئـه، لا يجهـل التحـديات الصعبة التي ينبغي أن يتصدى لها حتى يعمل على دنوه، ففي أدبه اتزان وموضوعية، فلم يعد يصرخ بصوت حاد لا يخلو من التشنج والندب لأن الانفعال الحاد ليس من الفن في شيء، إنه يحاول أن يصوغ مشاعره الذاتية صياغة موضوعية.

يمكن الإشارة إلى أن المضامين الروائية بعد عام ١٩٦٧، كانت ألصق بالواقع، بدرجة أكبر مما كانت عليه سابقاً، إذ اشتملت على التحليل والتصـوير للتناقضـات التـي تكتنـف المجتمع، واستبصار بحركته الدؤوب، لهذا كانت أصدق تعبيراً وأصفى صوتاً وأرحب رؤية، إلى جانب أن كتاب هذه المرحلة ينتمون إلى الفئات المحرومة صاحبة المصلحة الحقيقية فـي التغيير على الصعيدين السياسي والاجتماعي، فهم يحاولون، قدر جهدهم، التعبير عن الوجـه المشرق الذي ينبغي أن تكون عليه الحياة، فهم ينطلقون من منظور يعي العلاقة، غالباً، بـين اللحظة التاريخية والواقع الموضوعي ويدركون دورهم الطليعي في حمـل قضـية شـعبهم، صادرين عن صدق الرؤية وصدق مع النفس.

لقد كان الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة، يدركون منـذ البـدء، خطـورة المعركة التي يخوضونها تحت سيطرة الحكم العسكري الإسرائيلي، ومنذ البدء عبـر، قسـم منهم، عن وعيهم بالمخطط الموضوع ضدهم. ولم يكن هذا الوعي ليغطي التحدي السياسـي الذي يواجهه الفلسطينيون، بل كان يغطي التحدي الثقافي المبيت ضدهم، وقد أدرك قسم مـن الأدباء هذه الحقيقة بارتباطاتها السياسية والثقافية المختلفة. وقد أدى ذلك إلى تطور في أسلوب التعبير للتكيف في الأساس مع متطلبات جبهة التحدي الثقافية. ولكن هذا التوجـه نحـو فـتح الطريق أمام الأدب المقاوم لم يحدث بالمصادفة، بل كان في ذاته نتاجاً لوعي عميـق بمهمـة الأديب والمثقف أمام التحديات القائمة.

"غير أن هذا الاهتمام وهذه الحماسة، قد أخذا بالظاهرة من وجهها الأكثـر سـطوعاً لا مـن وجهها الأكثر عمقاً، أما أدباء الأرض المحتلة أنفسهم، أي صانعو هذه الظاهرة، فقد اسـتقبلوا اهتمام العالم العربي وحماسته، أول الأمر باعتزاز، نظروا إليه كشـهادة لنضـالهم القلمـي، وكمسؤولية أخرى جديدة تلقى على أقلامهم. ولكن نشوة الاعتزاز التي خامرتهم، في البدايـة، ما لبثوا أن صحوا منها، بعد فترة، حين أدركوا ما يحمل ذلك الاهتمام وتلك الحماسة المبـالغ فيها من مخاطر على أدبهم"

ويمكن ملاحظة أن فلسطين في ذهن الروائي العربي تختلف عن فلسطين في ذهـن الروائـي الفلسطيني "الذي كان له دوره الخاص في أن ينهض في الوطن من خلال التصاق أمين وحميم يحول دون تحول الوطن إلى مجرد فكرة، فإن الروائي العربي قد كتب روايته مـن منطلـق التعاطف والمشاركة ومن منطلق الواجب في إعطاء الحلول." بينما جاهد الروائي الفلسـطيني كي يجعل الوطن وطناً من دم ولحم وشجر وتاريخ وعادات وتقاليد وعلاقـات، فـالروائيون

الفلسطينيون عايشوا الوطن عن قُرب فكتبوا عن وطن حقيقي، وطن له تراب وله تاريخ، وفيه بشر معينون، وهؤلاء البشر حقيقيون من لحم ودم.

في الاتجاه المقابل فقد بينت الرواية الفلسطينية أن الانتماء قدر الفلسطيني مهما حاول الابتعاد، والانشغال بالهم الخاص، وقد قدمت أبطالاً روائيين يمثلون نماذج فلسطينية عديدة تنتمي إلى مختلف طبقات الشعب وفئاته. " وظهر البطل الفرد محوراً للعديد من الروايات في حين عنيت روايات أخرى بالبطولة الجماعية، " لكن الرواية الفلسطينية -غالباً- عندما اختارت بطلاً فلسطينياً فرداً تتمحور حوله الرواية كانت تنظر إليه أنه جزء من كل، وكانت تحاول أن تضيء بتجربته جانباً من الواقع الفلسطيني".